شعر
الوقوف على الأطلال
من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث

مقدمة في نشأة شعر الوقوف على الأطلال

الحب عاطفة كبيرة من عواطف النفس الإنسانية . ولعله أقوى هذه العواطف إطلاقاً . وقد شعر بها الناس في جميع الأزمان شعوراً قوياً . ولا يضاهيها في ذلك عاطفة من العواطف الأخرى . ويستغرق الحب من فنون الأدب العالمي ، قديمه وحديثه ، شيئاً كثيراً ، ويشغل فيه حيزاً كبيراً .

والمرأة المحبوبة أو الإنسان المحبوب يصبح كائناً ممتازاً ، ويكتسب قيمة جديدة ليست للإنسان العادي . يسبغها عليه صاحب الحب في شيء كثير من الخيال . والأشياء التي يكون لها علاقة بهذا الإنسان المحبوب تكتسب هي أيضاً هذا الامتياز ، وهذه القيمة الجديدة ، بالقياس إلى الأشياء الأخرى . وتغدو بذلك ذات قدرة على إثارة الإحساسات والمشاعر التي يثيرها الإنسان المحبوب نفسه ، وعلى إثارة إحساسات ومشاعر خاصة أخرى .

وهذه الأشياء التي لها علاقة بالإنسان المحبوب تتمثل في بعض أدوات خاصة ، ذات قوة على الرمز والإيحاء ، مثل : الثياب والمناديل والهدايا المختلفة وغيرها . وتتمثل أيضاً في بعض حوادث معينة رافقت أطواراً في حياة الإنسان المحبوب . وتتمثل كذلك في أماكن خاصة شهدت جانباً من هذه الحياة ، وصارت كلها ذات قدرة على إيقاظ الذكرى .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي كل هذه الحالات يكون الإنسان المحبوب هو مبعثَ الإحساسات والمشاعر . وليست هذه الأشياء سوى وسائلَ للرمز إليه .

والدار التي قضى المحبوب شطراً من حياته في جنباتها من أبرز هـذه الأشياء وأقواها على إثارة الحنين والذكريات . قال نصيب الأسود الشاعر (١) :

أما والذي حَجَّ المُلَبُّونَ بيتَهُ ... وعلَّمَ أيامَ الذبائحِ والنَّحْرِ
لقد زادني للغَمْرِ حبًّا وأهلِهِ ... ليالٍ أقامَتْهنَّ ليلى على الغَمْرِ
وهل يأثَمَنِّي اللهُ في أن ذكرتُها ... وعلَّلْتُ أصحابي بها ليلةَ النَّفْرِ
وسكَّنتُ ما بي من كلالٍ ومن كرى ... وما بالمطايا من جُنوحٍ ولا فَتْرِ

ويبدو لي أن هذا الحنين الذي يشعر به الإنسان في دار الحبيب ، بعد أن خلت هذه الدار من الحبيب ، هو الأصل وهو السر العميق في نشأة شعر الوقوف على الأطلال ، والبكاء عليها ، في الشعر العربي القديم .

ولسائل أن يسألنا الآن : إذا كان هذا الحنين الذي ينشأ في كل نفس إنسانية هو السبب في نشأة شعر الوقوف على الأطلال فما بال هذا الشعر قد ظهر عند العرب ، ولم يظهر عند غيرهم من الأمم ؟

ولنا أن نجيب على هذا السؤال بأن هذا الحنين هو الأساس الذي يقوم عليه شعر الوقوف على الأطلال في الحقيقة ، لأن هذا الشعر مرتبط بشعر الغزل ، ومتصل به دائماً في الأدب العربي ، ولا نجده قائماً بذاته وحده . فهو يأتي قبل الغزل في أغلب الأحيان ، ويأتي في ثنايا أبيات الغزل في بعض الأحيان . ويكون متصلاً به على كل حال . ولكن هذا الحنين الدفين في أعماق القلب ، الذي هو الأساس الأول في نشأة شعر الوقوف على الأطلال ، ليس

(١) الأبيات في لسان العرب (نفر) وانظر أمالي القالي ٢/٢٠٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

شرطاً كافياً ، وإنما هناك شروط أخرى ، وجدت في حياة العرب ، ولم توجد عند غيرهم من الأمم . هذه الشروط تتمثل في حياة العرب الاجتماعية التي كانوا يحيونها في البادية .

فقد طبعت بيئة البادية حياة العرب الاجتماعية في الجاهلية بطابع خاص ، بدا أثره في جميع أنماط هذه الحياة . وتقوم حياة البادية على رعي الإبل والأغنام في الوديان التي تنبت الكلأ في مواسم المطر . فكان الأعراب من أصحاب الإبل والأغنام يرتحلون بأموالهم وأهليهم يتبعون مواقع الغيث ، ومنابت الكلأ . وهذه الرحلة تسمى « النُّجْعَة » . ثم ينتقلون بها جميعاً من مكان إلى مكان ، حتى يعودوا إلى منازلهم الأولى في الصيف ، ويقيموا فيها على مياههم من الآبار وغيرها .

ومن حياة التبدي للنجعة ، ثم الارتحال في البادية من موضع إلى موضع طلباً للماء والكلأ ، ثم الرجوع إلى المحاضر قرب المياه الدائمة في شهور الصيف نشأ شعر الوقوف على الأطلال في الشعر العربي في الجاهليـــة . ونفسر ذلك فيما يلي في تفصيل وفضل بيان .

لقد قسمت النجعة أيام السنة في حياة العرب إلى قسمين اثنين :

١ ــ حياة التبدي : وهي الخروج إلى البادية بالأموال في مواسم المطر للرعي وطلب الماء في الوديان والرياض .

٢ ــ حياة الحضر : أي الرجوع من البادية ، والإقامة في المنازل المعروفة الدائمة على المياه والآبار في فصل الجفاف .

وقد شرح ذلك أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينَوَري (ــ ٢٧٦ هـ) في كتابه المعروف بكتاب « الأنواء في مواسم العرب » .

قال ابن قتيبة : « معنى التبدي أن يخرجوا إلى البوادي يبتغون الكلأ ومساقط الغيث . فلا يزالون كذلك إلى هَيْج النبات وانقطاع الرَّطْب وجفوف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الغدران . ثم يرجعون إلى محاضرهم ومياههم التي كانوا عليها[١] » . « والمقام في النُّجعة ثلاثة أزمنة كَمَلاً ، الربيع الأول وهو الخريف ، والشتاء ، والربيع الثاني . وهذه تسعة أشهر لمن تقدم في الخروج وتأخر عن الحضور »[٢].

وهكذا كان الأعراب بحكم حياتهم في الصحراء يُضطرون إلى التبدي والنجعة ، ثم إلى الارتحال من مكان إلى مكان طلباً للماء والمرعى كما قلنا . فكانوا يرعون الأرض التي ينزلونها حتى تنفد أعشابها ، وتنضب أمواهها ، فيقوضون بنيانهم ، ويرتحلون إلى أرض أخرى يجدون فيها العشب والماء ، بعد أن يتركوا في الأرض الأولى آثاراً باقية تدل على الحياة الماضية التي كانت فيها ، ثم رحلت عنها بعيداً .

وكان الأعراب في نزولهم على المياه تجتمع منهم عدة أحياء على ماء واحد وفي منزل واحد . فتنشأ مع الأيام أُلفة ومودة وصلات قربى بين النازلين معاً ، تقرب بينهم ، وتكون سبباً في تعرف الفتيان والفتيات بعضهم ببعض ، في أثناء الأعمال اليومية في النهار ، وفي ساعات السمر على النار المشبوبة وسط البيوت في الليل .

وقد أطلق العرب على الناس الذين ينزلون معاً في مكان واحد كلمة « الخليط » . وهي بمعنى الصديق ، والقوم المجتمعين المتآلفين الذين أمرهم واحد ، وحياتهم واحدة في النجعة[٣]. وقد دخلت هذه الكلمة حيز الشعر ، وأصبحت كلمة شعرية غنية بالرمز والإيحاء ، تتردد في شعر الشعراء كثيراً ، ولا سيما في شعر الوقوف على الأطلال في مطالع القصائد .

---

(١) كتاب الأنواء ص ٩٦ .
(٢) كتاب الأنواء ص ١٠٠ .
(٣) انظر اللسان (خلط) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبعد حين من الدهر يُضطر الخليط النازلون في مكان واحد إلى الافتراق والرحيل . فكان كل فريق منهم يرحل إلى جهة ، ويذهب في سبيله إلى غير لقاء مأمول . وكان ذلك يسوءهم كثيراً ، فلذلك كثر ذكر الخليط والفراق والرحيل في شعر الوقوف على الأطلال عند العرب . جاء في لسان العرب في مادة (خلط) : « وإنما كثر ذلك (أي ذكر الخليط) في أشعارهم لأنهم كانوا ينتجعون أيام الكلأ ، فتجتمع منهم قبائل شتى في مكان واحد . فإذا افترقوا ورجعوا إلى أوطانهم ساءهم ذلك » .

قال بَشَامَةُ بْنُ الغَدِيرِ :

إنَّ الخَلِيطَ أَجَدُّوا البَيْنَ فابتَكَرُوا ... لِنِيَّةٍ ، ثم ما عادوا ولا انتظروا

وقال نَهْشَلُ بْنُ حَرِّيٍّ :

إن الخليط أجدُّوا البين فابتكروا ... واهتاجَ شوقَكَ أحْداجٌ لها زُمَرُ

وقال جَريرٌ :

بان الخَلِيطُ ولو طُوِّعْتُ ما بانا ... وقطّعوا من حبالِ الوصلِ أقرانا

وكل هذه الأبيات مطالع قصائد للشعراء المذكورين (١) .

وكلمة « الخليط » الشعرية هذه مأخوذة من « الخِلْطَة » ، بكسر الخاء ، وهي بمعنى المودة والعِشْرة .

وكثيراً ما كان الأعراب في رحلاتهم وأسفارهم يمرون بهذه المنازل التي كانوا نزلوا بها ، ثم خلفوها . فيجدونها خالية ساكنة ، تضرب في جنباتها الرياح . ويقفون قليلاً لينظروا إلى الآثار الباقية فيها ، وقد عدا عليها الخراب ، فيذكرون أياماً ماضية أصابوا فيها سروراً وسعادة ،

(١) انظر الأبيات وغيرها في اللسان (خلط) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ونموا فيها بالحب والمودة . ثم يسيرون لشؤونهم وقد حز الألم في نفوسهم ، وفاض الدمع من عيونهم ، لذكرى هذه الأيام الحبيبة إلى قلوبهم .

وهكذا فإن نمط الحياة الاجتماعية التي تدعو الأعراب إلى الارتحال من منزل إلى منزل ، ثم المرور بهذه المنازل المتروكة ، ورؤيتها خالية ساكنة ، والحنين الذي يثيره في النفس رؤيتها ، وتذكر الأيام الماضية فيها ، كل هذا في رأينا هو السبب في ظهور شعر الوقوف على الأطلال عند العرب .

ولسنا نرى هذا الرأي دون أن نجد له آثاراً في آراء غيرنا من النقاد العرب القدامى ، فقد قال ابن رشيق القيرواني في كتابه « العمدة » : « وكانوا قديماً (أي العرب) أصحاب خيام ينتقلون من موضع إلى آخر . فلذلك أول ما تبدأ أشعارهم بذكر الديار . فتلك ديارهم ، وليست كأبنيـــة الحاضرة . فلا معنى لذكر الحضري الديار إلا مجازاً ، لأن الحاضرة لا تنسفها الرياح ، ولا يمحوها المطر ، إلا أن يكون ذلك بعد زمن طويل لا يمكن أن يعيشه أحد من أهل الجيل (١) » .

يلفت نظرنا من كلام ابن رشيق هذا إشارته إلى تنقل العرب في حياتهم ، وإلى ذكر الديار في أشعارهم ، وذلك نتيجة لحياة التنقل . وهذا يقوي رأينا الذي شرحناه وفصلناه في نشأة شعر الوقوف على الأطلال عند العرب .

وقال الآمدي في كتابه « الموازنة » : « العرب لا تقصد الديار للوقوف عليها ، وإنما تجتاز بها . فإن كانت على سَنَن الطريق قال الذي له أرب في الوقوف لصاحبه أو أصحابه : قف وقفا وقفوا ، وإن لم تكن على سَنَن الطريق قال : عوجا وعرّجا وعوجوا وعرّجوا » (٢) .

---

(١) العمدة ١/١٩٨ ـ ١٩٩ .

(٢) الموازنة ١/٤٠٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي هذا الكلام أيضاً إشارة موجزة إلى حياة العرب في التنقل والارتحال من منزل إلى منزل ، ثم الاجتياز بهذه المنازل بعد حين من الدهر . وهذه الإشارة ، على الرغم من إيجازها الشديد ، تقوي رأينا في نشأة شعر الوقوف على الأطلال عند العرب .

* * *

وتعترضنا هنا قضية الأولية في نشأة شعر الأطلال في الشعر العربي القديم . وزعم بعض الرواة أن امرأ القيس قد سبق إلى معان جديدة في الشعر ، وفنون طريفة فيه ، فاستوقف على الدار وبكى على الأطلال .

يقول ابن سلاّم الجُمَحي في كتابه « طبقات الشعراء » على لسان من يقدمون امرأ القيس على غيره من الشعراء : « فاحتج لامرئ القيس من يقدمه ، قال : ما قال ما لم يقولوا (أي الشعراء) ، ولكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها ، استحسنتها العرب ، واتبعته فيها الشعراء . منها : استيقاف صحبه ، والبكاء في الديار ، ورقة النسيب ... »(١) .

ونفهم من كلام ابن سلاّم أن امرأ القيس هو الذي ابتدع شعر الوقوف على الأطلال . ولكن ابن سلام نفسه يشك في هذه الدعوى . ويستدل على صحة شكه بقول امرئ القيس نفسه (٢) :

عُوجا على الطلَلِ المُحيلِ لعلَّنا نَبْكي الديارَ كما بكى ابنُ خِذامِ

ونرى هنا امرأ القيس نفسه قد اعترف بأن شاعراً قبله قد سبقه إلى بكاء الأطلال . ويقول الرواة بأن هذا الشاعر من طَيِّئ . ولكنهم لا يعرفون اسمه ولا العصر الذي عاش فيه .(٣) هل كان قبل امرئ القيس أم كان حياً في زمانه ؟ لسنا ندري من ذلك شيئاً .

---

(١) طبقات الشعراء ٤٦ . وانظر العمدة ١/٩٤ ، والشعر والشعراء ٥٧ .
(٢) ديوانه ١١٤ .
(٣) طبقات الشعراء ٣٣ ، ولسان العرب (خذم) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهكذا نرى أن هذا القول ضعيف ، لا ينتهي بنا إلى اليقين في هذا الموضوع . وإنما ينتهي بنا إلى الشك وحسب . فلنبحث إذاً في الموضوع من وجه آخر . وذلك أننا إذا قرأنا شعر امرئ القيس وغيره من شعراء عصره نجد شعر الأطلال عندهم تاماً ناضجاً ، مؤتلف الأجزاء في ألفاظه ومعانيه . كما أننا نجده قائماً ثابتاً في شبه قاعدة فنية ، يلزمها الشعراء في مستهل قصائدهم . وكل ذلك يوحي إلينا أن شعر الأطلال عند امرئ القيس وأصحابه كان نتيجة تطور طويل ، في طريق طويلة ، قطعها هذا الشعر في تطوره وتغيره وتكامله خلال عصور سابقة لعصر امرئ القيس وأصحابه .

على أن امرأ القيس إن لم يكن هو الذي فتح هذا الباب ، وسبق غيره من الشعراء إلى الوقوف على الأطلال ، والبكاء في الديار ، فلا يبعد عندنا أن يكون هو الذي أكثر من هذا البكاء في قصائده ، وأطال فيه ، وصرف القول فيه على فنون كثيرة ، وأتى فيه بأكثر معانيه ، حتى صار بعض الرواة ومن اتبعهم من الأدباء والنقاد العرب القدامى ينسبون إليه اختراع هذا الفن وسبقه إليه .

والنتيجة أن امرأ القيس قد جوّد شعر الوقوف على الأطلال ، وأطال فيه ، وزاد في معانيه وصوره . ولكننا ، مع هذا ، لا نقبل رأي القائلين بأنه هو الذي ابتدعه ابتداعاً ، من غير مثال سابق عليه . والحق بعدُ أنه لا حاجة بنا إلى افتراض أسبقية شاعر معين في مثل هذه الفنون والمعاني الراسخة في نفسية المجتمع وأجياله المتتابعة خلال العصور ، والمستمدة من أصول حياتهم الاجتماعية في بيئتهم الخاصة ، كما بيّنا آنفاً .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سار الشعراء الجاهليون منذ امرئ القيس على ابتداء قصائدهم بالوقوف على الأطلال ، والبكاء على الديار ، والاستطراد إلى وصفها . وجعلوا من ذلك (شبه قاعدة فنية) ، لا يخرجون عليها إلا في أحوال نادرة . ويبدو لنا أن (الوسيلة الفنية الكبرى) لافتتاح القصائد عند الشعراء الجاهليين هو التغزل بالمرأة المحبوبة ، وأن الوقوف على الديار والبكاء على أطلالها (وسيلة فنية صغرى) ، يقدمون بها بين يدي هذا الغزل نفسه في أغلب الأحيان .

وهذه أبيات من الشعر الجاهلي نسوقها مثالاً وإيضاحاً لما قلناه . وهي تعتبر أنموذجاً جيداً لابتداء القصائد في الشعر الجاهلي . قال عبيد بن الأبرص الأسدي في ابتداء قصيدة له (١) :

لمن الدارُ أقفرتْ بالجِنابِ ... غيرَ نُؤْيٍ ودِمْنة كالكتابِ
غيَّرتْها الصَّبا ، ونفحُ جَنوب ... وشمالٍ تذرو دُقاقَ التُرابِ
فتراوحنها ، وكلُّ مُلِثٍّ ... دائمِ الرعدِ ، مُرْجحنٍّ السحابِ (٢)
أوحشتْ بعد ضُمَّرٍ كالسعالي ... من بنات الوجيه أو حَلاّبِ (٣)
ومُراحٍ ومَسْرَح وحُلولٍ ... ورعابيبَ كالدُّمى وقِيابِ (٤)
وكهولٍ ذوي ندىً وحلوم ... وشبابٍ أنجادَ غُلْبِ الرقابِ (٥)

(١) ديوانه ٢١ ـ ٢٣ .
(٢) تراوحنها : تعاقبن عليها . والملث : المطر الدائم . والمرجحن : الذي يهتز .
(٣) الضمر : الخيل القليلة اللحم . والوجيه والحلاب : فرسان كريمان مشهوران من خيل العرب .
(٤) المراح : مأوى الابل في الليل . والمسرح : مرعاها في النهار . والحلول : الجماعة المقيمون . والرعابيب : النساء البيض الحسان .
(٥) الحلوم : العقول . وغلب الرقاب : غلاظها ، وهذا دليل القوة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هيَّج الشوقَ لي معارفُ منها حين حلَّ المشيبُ دارَ الشبابِ
أوطنتْها عُفْرُ الظباء ، وكانت قبلُ أوطانَ بُدَّنٍ أترابِ(١)
خُرَّدٍ ، بينهن خَوْدٌ سبتْني بدلالٍ ، وهيَّجتْ أطرابي(٢)
صَعْدةٌ ما علا الحقيبةَ منها وكثيبٌ ما كان تحت الحِقابِ(٣)

★ ★ ★

إننا إنما خُلِقْنا رؤوساً من يُسَوِّي الرؤوسَ بالأذنابِ
لا نقي بالأحساب مالاً ، ولكن نجعل المالَ جُنَّةَ الأحسابِ

نرى الشاعر في هذه الأبيات قد وقف على الديار ، ثم شرع في نعتها وقد خربت وتغيرت . ثم طار به خياله ، حين رآها خالية موحشة ، إلى تصور الحياة الجميلة الغنية التي كانت تضطرب في جنباتها في الأيام الماضية . ثم ذكر هواه القديم في هذه الديار ، إذ سبته صبية حسناء ناعمة . وبدأ يصف محاسنها متغزلاً . وبعد ذلك كله أخذ في غرضه الأصلي الذي بنى قصيدته عليه ، وهو الفخر هنا .

كان الغزل إذاً وسيلة إلى الغرض العام في القصيدة ، وكان شعر الوقوف على الأطلال وسيلة إلى هذا الغزل . ومهما يكن من أمر فقد كان شعر الوقوف على الأطلال مستقلاً عن الغزل ، ولم يكن معنى من معانيه كما يبدو للوهلة الأولى ، وإن كان متصلاً به من حيث الجو العام الذي تسري فيه أنغام عاطفة الحب .

---

(١) أوطنتها : سكنتها . بدن : أي نساء بادنات صحيحات الأجسام .
(٢) الخرد : الخفرات ، مفردها خريدة . والخود : الحسناء الشابة . وأطرابي : أشواقي .
(٣) صعدة : أي هي مستوية كالرمح في أعلاها . والحقيبة : العجيزة . والكثيب : تل الرمل ، شبه به عجيزتها . والحقاب : نطاق تشده المرأة في وسطها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا وقد جاء شعر الأطلال مستقلاً استقلالاً تاماً عن الغزل في قصائد كثيرة ، وقف أصحابها على الديار ، وبكوا أطلالها . ثم خلصوا منهـــا إلى أغراضهم العامة خلاصاً مباشراً ، دون أن يخرجوا من شعر الأطلال إلى الغزل ، كما هي العادة المألوفة في القاعدة الفنية العامة .

★ ★ ★

أنشد الشعراء الجاهليون بعد امرئ القيس شعراً كثيراً في الوقوف على الديار ، والبكاء على الأطلال . وسار الشعراء الإسلاميون على خطى الجاهليين في الإكثار من شعر الوقوف على الأطلال . واتبعهم في ذلك شعراء العرب في العصور التالية .

وسوف نعرض في الفصول الآتية من بحثنا هذا للشعر الذي قاله شعراء العرب في الوقوف على الأطلال في هذه العصور الأدبية . فنتتبعه من أقصى الجاهلية حتى نهاية القرن الثالث الهجري . فنرى أولاً المعاني العامة التي أتى بها الشعراء في هذا الشعر . وهذا هو الفصل الأول من بحثنا . ثم نرى مسألة تطور هذا الشعر خلال العصور التي ذكرناها ، ونبين أسباب هذا التطور . وهذا هو الفصل الثاني من بحثنا .

وبعد هذين الفصلين ندرس الشعور الفني الذي يثيره في نفوسنا شعر الوقوف على الأطلال حين قراءتنا له . ونحلل هذا الشعور الفني إلى عناصره التي تشترك في تأليفه . وهذا هو الفصل الثالث من بحثنا . ثم نختم كل ذلك بخاتمة نبين فيها الأسباب في حياة شعر الوقوف على الأطلال واستمراره خلال هـذه العصور الأدبية .

وستكون خطتنا في دراسة كل هذه الأمور خطة الإيجاز ، والوقوف على الخطوط العامة في الموضوع ، دون الاهتمام بالتفاصيل الجزئية الدقيقة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الفصل الاول

المعاني العامة في شعر الوقوف على الأطلال

تمهيـــد

المعاني التي أتى بها شعراء العرب في الجاهلية في شعر الوقوف على الأطلال ليست بكثيرة . ويمكننا في سهولة ويسر أن نستقصي هذه المعاني ، ثم نضع لها ثَبْتاً إحصائياً إن لم يكن تاماً كل التمام فهو يقرب من التمام . ويمكن لنا أن نستقري طرفاً من هـذه المعاني من الأبيات الأولى ، من معلقة امرىء القيس التي بدأها بالوقوف على الأطلال (١) .

وقد عرض الآمديُّ لهذا الأمر في كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري في (فن الابتداء) ، أي فن ابتداء القصيدة . فأثبت في البدء المعاني التي يريد أن يوازن فيها بين الشاعرين في قوله :

« وأنا أبتدىء ـ بإذن الله ـ من ذلك بما افتتحا به القول : من ذكر الوقوف على الديار والآثار ، ووصف الدِّمَن والأطلال ، والسلام عليها ، وتعفية الدهور والأزمان والرياح والأمطار إياها ، والدعاء بالسقيا لها ، والبكاء فيها ، وذكر استعجامها عن جواب سائلها ، وما يَخْلُف قطينَها الذين كانوا حُلولاً بها من الوحش ، وفي تعنيف الصحابة ولومهم على الوقوف بها ، ونحو هذا مما يتصل به من أوصافها ونعوتها (٢) » .

---

(١) ديوان امرىء القيس ٨ ـ ٩ .
(٢) الموازنة ١/٤٠٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولكن الآمدي ، حين الموازنة الحقيقية في الكتاب ، ذكر هذه المعاني كما في التصنيف الآتي :

١ — الابتداء بذكر الوقوف على الديار (ص ٤٠٦ و ٥١٢) .

٢ — التسليم على الديار (ص ٤١٧) .

٣ — تعفية الدهور والأزمان للديار (ص ٤٢٠) .

٤ — إقواء الديار وتعفّيها (ص ٤٢١) .

٥ — تعفية الرياح للديار (ص ٤٢٣ و ٤٦٤) .

٦ — في البكاء على الديار (ص ٤٢٥ و ٥٣٤) .

٧ — في سؤال الديار واستعجامها عن الجواب (ص ٤٢٨ و ٤٧٠) .

٨ — فيما يخلُف الظاعنين في الديار من الوحش وما يقارب معناه (ص ٤٣٣ و ٥٠٥) .

٩ — فيما تهيجه الديار وتبعثه من جوى الواقفين بها (ص ٤٣٥) .

١٠ — في الدعاء للدار بالسقيا والخصب والنبات (ص ٤٣٦ و ٤٩٧) .

١١ — في لوم الأصحاب في الوقوف على الديار (ص ٤٣٩ و ٥١٢) .

١٢ — أوصاف الديار ووصف أطلال الديار وآثارها (ص ٤٤٦ و ٤٥٥) .

فزاد كما نرى معنى هاماً ، لم يذكره أولاً ، وهو ما سماه « ما تهيجه الديار وتبعثه من جوى الواقفين بها » .

وقد تتبعنا نحن المعاني التي أتى بها شعراء العرب في الوقوف على الأطلال من أقصى الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث ، واستقصيناها ، وصنفناها في الجدول الآتي ، بعد ضم المعاني المتقاربة بعضها إلى بعض في معنى واحد عام . وقد صار عندنا ما يقرب من اليقين أن معاني شعر الوقوف على الأطلال لا تخرج ، أو لا تكاد تخرج ، عما نذكره في هذا الجدول :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

١ ـ ذكر الوقوف على الديار . ٢ ـ تعيين مكان الديار . ٣ ـ التسليم على الديار . ٤ ـ تعيين زمن الوقوف على الديار . ٥ ـ ذكر مدة فراق الديار . ٦ ـ سؤال الديار ، وتكليمها ، واستعجامها عن الجواب . ٧ ـ الدعاء للديار بالسقيا . ٨ ـ وصف الديار ، ووصف بقاياها . ٩ ـ تخريب الديار . ١٠ ـ الحيوان الذي يألف الديار بعد خلائها من أهلها . ١١ ـ حالة الشاعر النفسية حين الوقوف على الديار . ١٢ ـ استعانة الشاعر بأصحابه ، والمشاركة الوجدانية بينهم وبين الشاعر . ١٣ ـ ذكر صاحبة الديار والتغزل بها .

وقد أتى امرؤ القيس بالقسم الأعظم من هـذه المعاني ، التي ذكرناها في الجدول ، في شعره الذي قاله في الوقوف على الأطلال ، على تفاوت منه في الإكثار من ترداد بعضها ، والإقلال من ذكر بعضها . وقد تتبعنا المعاني التي أتى بها في شعره ، واستقصيناها في الجدول الآتي :

١ ـ ذكر الوقوف على الديار . ٢ ـ تعيين مكان الديار . ٣ ـ التسليم على الديار . ٤ ـ سؤال الديار ، واستعجامها عن الجواب . ٥ ـ وصف الديار ووصف بقاياها . ٦ ـ تخريب الديار . ٧ ـ الحيـــوان الذي يألف الديار . ٨ ـ حالة الشاعر النفسية حين الوقوف على الديار . ٩ ـ استعانة الشاعر بأصحابه ، والمشاركة الوجدانية بينهم . ١٠ ـ ذكر صاحبة الديار ، والتغزل بها .

* * *

وهنا بعض ملاحظات لا بد لنا من ذكرها :

أولى هذه الملاحظات أنه ليس من الضروري أن يبدأ الشاعر قصيدته بالمعنى الأول من هذه المعاني دائماً ، أي بالوقوف على الديار . فقد بدأ شعراء العرب قصائدهم بأكثر هذه المعاني التي ذكرناها في الجدول .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والملاحظة الثانية هي أنه ليس من الضروري أيضاً أن يتبع الشعراء في إيراد المعاني في قصائدهم هذا الترتيب الذي أوردناه في الجدول . إنهم يبدءون بأي معنى من هذه المعاني يختارونه ، ويسيرون في إيرادها على أي ترتيب يختارونه أيضاً .

والملاحظة الثالثة هي أنه ليس من الضروري أيضاً أن يأتي أحد الشعراء بهذه المعاني جميعاً ، في قصيدة واحدة . فقد يأتي ببعض هـــذه المعاني ، ويهمل بعضها ، في قصيدة واحدة ، دون أن يكون هنالك أية قاعدة فنية ، أو أي سبب آخر ، في إيراد هذا المعنى أو إهمال ذلك .

ولا يسعنا في بحثنا أن نعرض لكل هذه المعاني بالدرس ، لأن ذلك يطول . ولذا سنقتصر على البحث في بعض المعاني التي تعد أساسية في شعر الوقوف على الأطلال ، وكان الشعراء يهتمون بها في شعرهم اهتماماً أكبر من اهتمامهم بغيرها ، ويرددونها كثيراً . وهذه المعاني هي التي طرأ عليها التطور خلال العصور الأدبية . فلذلك سنقتصر عليها في البحث ، وهي :

١ — سؤال الديار وتكليمها واستعجامها عن الجواب .

٢ — وصف الديار ووصف بقاياها .

٣ — تخريب الديار .

٤ — الحيوان الذي يألف الديار بعد خلائها .

٥ — حالة الشاعر النفسية حين الوقوف على الديار .

١ — سؤال الديار وتكليمها

اعتاد شعراء العرب في شعر الوقوف على الأطلال أن ينادوا الديار بعد الوقوف عليها ، واعتادوا أن يسألوها عن أهليها الذين كانوا حلولاً فيها في الماضي ، ثم تحملوا عنها . واعتادوا أن يطلبوا إليها تكليمهم وتحديثهم عن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أخبارهم . وقد استطاعوا أن يجعلوا لهذه الديار أشخاصاً تسمع لهم ما يقولون . ولكنهم لم يصلوا إلى أن يجعلوها تجيبهم ، وتحدثهم حديث الأيام الماضية ، والذكريات الخالية . فقد كان جواب الديار على سؤالهم وكلامهم الصمت المطبق ، والسكون العميق ، لخلوها من الناس ، وعجزها عن الكلام .

قال امرؤ القيس :

يا دارَ ماويَّةَ بالحائلِ فالسَّهْبِ فالخَبْتَيْنِ من عاقلِ
صَمَّ صَداها ، وعفا رسمُها واسْتَعْجَمَتْ عن منطق السائلِ

فالدار قد بادت حتى لا يسمع لها صدى . واستعجمت فلا تستطيع رداً على نداء الواقف بها .

والقاعدة العامة في شعر الوقوف على الأطلال هي : سؤال الديار عن أهليها من قبل الشعراء . ثم محاولة تكليمها والتحدث إليها . هذا من جهة . والسكوت عن الجواب من قبل الديار ، في كل الأحوال ، من جهة ثانية .

والصفات العامة التي توصف بها الديار في معرض سؤالها وتكليمها وسكوتها عن الجواب هي : الصمم والخرس والعجمة .

قال الأسودُ بن يَعْفُرَ النَّهْشَليُّ :

هل بالمنازل إن كلمتُها خَرَسُ أم ما بيانُ أثافٍ بينها قَبَسُ

نعم ، فالمنازل خرساء لا تكلم الواقف بها ، والأثافي صامتة لا تبين شيئاً . والرماد ساكت لا يرد جواباً .

ويقول عنترة العبسي :

أعْياكَ رسمُ الدار ، لم يتكلمِ ، حتى تكلم كالأصم الأعجمِ

أطال عنترة الوقوف في الدار ، وأطال في سؤالها وتكليمها حتى أعيا ، وحتى أعيته عن الجواب . ولكن سكوتها أوحى إليه بما يريد ، كأنها كلمته بالرمز والإيحاء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد استطاع بعض الشعراء أن يصل إلى درجة إعطاء الديار نفحة الروح، والقدرة على الكلام. ولكن هذه القدرة كانت ضعيفة خفيفة لا تكاد تبين شيئاً.

قال عوف بن عطية:

وقفتُ بهـــا أُصُلاً ما تُبين   لسائلها القول إلا سِرارا

لقد ذُهِل الشاعر عن نفسه، واستغرق في الذكريات، حتى خيل إليه أن الديار تبين له القول، ولكن في صوت خافت رفيق، كأنها تسر إليه ما بقلبها من أحزان، وتهمس في أذنه ما أبقت لهـا الأيام من ذكريات وآلام.

٢ — وصف الديار ووصف بقاياها

يمكننا باستقراء شعر الأطلال أن نعرف بقايا الديار، ونستقصيها ونصنفها في ضربين اثنين، هما:

الرسوم، وهي البقايا التي تكون على الأرض، وتظهر لاصقة بها، كبقايا الرماد والدمن وما تناثر من الفرش. والرسوم واحدها رَسْم، وهو ما لصق بالأرض من آثار الدار.

الأطلال: وهي البقايا التي تظهر شاخصة ماثلة فوق الأرض، كالأوتاد والأثافيّ وبقايا الخيام. والأطلال واحدها طَلَل، وهو ما شخص وبرز فوق الأرض من آثار الديار.

وهذه البقايا من الرسوم والأطلال التي ذكرناها لم يخرج شعراء العرب جميعاً خلال العصور عن ذكرها في شعر الوقوف على الأطلال، سواء كانوا من سكان البادية، أو من أهل المدن الذين قطنـــوا الحواضر في الجاهلية والإسلام.

* * *

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد اتبع الشعراء في وصفهم هذه البقايا طريقتين اثنتين :

الأولى هي (الطريقة المباشرة) في الوصف . ويعمد الشاعر في هذه الطريقة إلى ذكر الديار ، وتعداد بقاياها ، دون أن يلجأ إلى مخيلته ليستمد منها بعض صور فنية يشبه بها هذه البقايا .

والطريقة الثانية هي (الطريقة البيانية) في الوصف . ويعمد الشاعر في هذه الطريقة إلى (البيان) بمعناه البلاغي ، وهو الوصف والتصوير عن طريق التشبيه والاستعارة وما إلى ذلك .

ولن نعرض هنا للشعر الذي قيل في الأطلال على الطريقة المباشرة ، لأنه قليل في مادته ، ولا يغني شيئاً كثيراً في موضوعه .

ونقف عند الشعر الذي قيل على الطريقة البيانية ، وهو أغلب الشعر الذي قيل في الأطلال وأجوده ، لنرى التشبيهات والصور الفنية التي أتى بها الشعراء .

ولا بد لنا من الإشارة هنا إلى أن الوصف في الشعر عامة يكون في أغلب الأحيان على الطريقة البيانية . والسر في ذلك هو أن غاية الشعر هي التزيين والتجميل أو التأثير في النفس ، كشأن سائر الفنون الجميلة . وتحقيق هذه الغاية أقرب ، والوصول إليها أيسر عن طريق التصوير البياني . فالشاعر ، في هذه الطريقة ، يستشف في شيء من الأشياء عناصر الجمال والزينة أو عوامل التأثير في النفس ، ثم يسبغها على الشيء الذي يصفه . فيزيد بذلك زينته وجماله ، أو يقوي عامل التأثير والإيحاء فيه .

وقد وصف هؤلاء الشعراء الديار بجملتها . كما أنهم وقفوا عند بقاياها ، فوصفوها جزءاً جزءاً . وسنعرض في الصفحات التالية للصور الشهيرة التي أتوا بها في وصف الديار عامة ، ونتبعها بالصور التي أتوا بها في وصف الأجزاء من بقايا الديار واحداً واحداً .

(يتبع) عزة حسن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net